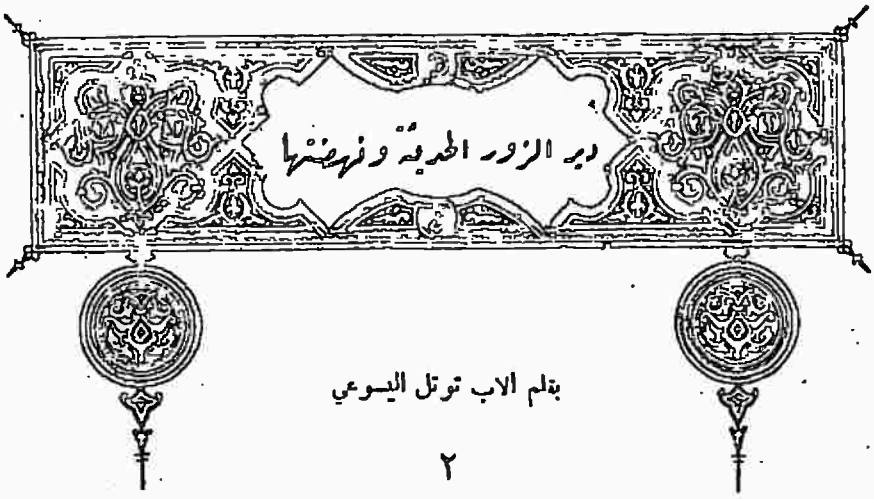

بقلم الاب توتل اليسوعي

٢

الصحة والتعليم والاشغال العمومية

جاء في بيان الحكومة السورية عن السنين الثلاث الاخيرة (١٥ شباط ١٩٢٨-١٥ شباط ١٩٣١) ان بلدية دير الزور اتمت خلالها الاصلاحات اللازمة للمسلخ، واحدثت عجلات فنية لنقل اللحوم، وزادت في عجلات التنظيفات، واصلحت المجاري العامة، واحدثت اخيراً مجرى عاماً طوله ٣٥٠ متراً يتصل بنهر الفرات فيخلص الاهلين من مياه الامطار والسيول والمياه المتعفنة، وكافحت داء الزهري المنتشر بين المشاتر، بالطرق الفنية، وتقدر نسبة انتشار المرض في لواء الدير بثمانين بالمئة من السكان، وذلك لان من العادة عندهم تلقيح الاطفال بافرازات قرحات المصابين ظناً منهم ان هذا العمل يولد فيهم المناعة كما هي في الحال في الجدري، وهذا عين الجهل. وفتحت البلدية شارع الفرات على طول ١٢٠٠ متر من جهة الغرب، و ٣٠٠ متر من جهة الشرق، وانشأت شارعاً آخر بطول ٣٠٠ متر، وعرض كل من هذين الشارعين اثنا عشر متراً؛ ووسعت بقية الشوارع فجعلت عرض بعضها تسعة، وبعضها سبعة ونصفاً والبعض الآخر ستة امتار، وعبدتها تعبيداً جيداً واصلحت ما وجب اصلاحه فيها. ثم قامت بمشروع جرّ المياه فاحدثت في الشوارع اثني عشر صنبوراً ليستقي الاهلون منها بلا عوض، ووزعت المياه في انابيب على المدارس والسجن العام، وزادت في اضاءة المدينة فضاعفت عدد

المصابيح الكهربائية فيها وغرست اغراساً كثيرة في الشوارع والحدائق استفيد منها الفائدة المطلوبة.

وجلبت مطافئ وضعتها في دوائرها ومستودعاتها درءاً لاخطار الحريق، ومنعت بيع الصوف والسمن في الاسواق والطرق العامة، فاصبحا يباعان اليوم في محلات خاصة احدثت لهذه الغاية. ووضعت تصميماً لانشاء ميدانين عامين لبيع الحيوانات والاغنام والفواكه والمكيلات، وآخر لمستودع المواد الملتهبة. وسيتم لها ذلك في عام ١٩٣١.

وبنى الاهلون في لواء دير الزور، بترغيب رجال المعارف، ستاً وثلاثين مدرسة. ولفت مركز المدينة المهم انظار رؤساء الارساليات الغربية فعجل نمو عدد السكان في القاعدة تنفيذ مشاريعهم العلمية وها ان الآباء الكبوشيين والراهبات الافرنسيات من لونس لسونيه قد رفعوا على جانب الفرات جدران معاهد سوف تزيد برونق البلدة وتعزز مكانة الدروس فيها.

على ان المشروع الخطير الذي اتمته الحكومة، مؤخراً، في الدير، انما هو الجسر المعلّق الكبير، وهو حقيق بان يستوقفنا فنمتع النظر بمشاهدته ونصف منافعه في سبيل الامن العام والحركة التجارية.

بني هذا الجسر مكان الجسر القديم الذي كانت الحكومة التركية قد شرعت في انشائه سنة ١٩١٢ عن تصميم يتألف من ١٤ قنطرة طول كل منها ١٠ امتار. وبعد أن وضعت الحرب اوزارها عزمت الحكومة على تشييد جسر جديد، وبدأت بالعمل في تموز سنة ١٩٢٥ عن تصميم يؤذن باقامة جسر معلّق ذي ممر واحد للعجلات، وله قنطرة واحدة طولها ١١٢ متراً و٥٠ سنتيمتراً تتصل عند كل الضفتين بقنطرة اخرى طولها ٥٦ متراً و٥٠ سنتمتراً.

وحدث في ايار سنة ١٩٢٩ الطوفان المرم، فاوقع اضراراً فادحة بما كان قد نجز من العمل واحدث توسيعاً عظيماً في مجرى النهر ولاسيما في الجهة الشمالية فألجأ ملتزمي الجسر الى اجراء تعديل جديد في التصميم الاساسي.

اما الجسر الجديد فيتألف من ثلاث قناطر كبيرة، طول كل منها ١١٢ متراً ونصف المتر، تتصل في جانبيها عند كل من الضفتين بقنطرتين صغيرتين.

ومجموع الطول من اول الجسر الى آخره ٤٥٠ متراً و٥٠ سنتيمتراً ، وقد اقيم سدّ الى الضفة اليسرى يقي في المستقبل شر الطوفانات العرمة المشابهة لما جرى منها في السنة ١٩٢٩ . وفي ٢٣ نيسان الماضي احتُفل بتدشين البناية . وهذا الجسر متصل بالطريق العمومية المارة بالحديقة وجسر الساعة الصغيرة ، المؤدي عمودياً الى شارع دير الزور المخترق البلدة من الشرق الى الغرب.

بالامس كانوا يعبرون الفرات بالكلكات او على القرب المنتفخة ، ولا تسأل عما كان يكلفهم ذلك من التعب والخطر ، وصرف الوقت في تجهيز الرحيل وتدبير الوصول ، فكانت الايام والليالي تنقضي دون نهاية اجتياز الوف الغنم ، والعقبات العديدة تقف في وجه الحجاج والمسافرين . وها ان اليابسة قد ارتبطت باليابسة بين الجزيرة والشامية ، والمواصلات انفتحت للسيارات وللغنم وللجيش بين بلاد الموصل وبلاد الشام عن طريق الدير ، فحبذا المشروع العمراني العظيم.

الحركة التجارية

شكت حكومة الدير في مستهلّ هذا العام (١٩٣١) من قلة ورود الطلب من بلاد الفرنج لمحصولات الدير كالحَبّ والغنم والسمن والصوف . وزادت الاحوال الجوّية الحالة تفاقماً فحالت دون سرعة المواصلات . وبقيت كميات وافرة من المحصولات لا شارٍ يشتريها . وفتك الجراد بالمزروعات الصيفية فتكاً ذريعاً . فحوّل الفلاح نظره عن القطن . وكانت نتيجة زراعة الذرة ذاتها دون المأمول.

على ان حالة الاغنام عوضت بعض التعويض عن الخسارات الزراعية . فان المراعي ارتوت واتت بكلاء كثير ، ولم يشتدّ البرد في البادية فكثر الغنم حتى بلغ مبلغاً قلما زاد عليه ، لان ١٠ بالمئة من الاغنام وضعت صغارها توأمين . وتهافت الحلبيون على شراء السمن فاستوردوا منه زهاء عشرين الف صندوق.

واهملت السوق الاميركية ابتياع الاصواف فسقطت اسعارها : انتجت بلاد الزور اربعة آلاف بالة صوف كل بالة تراهي ١٢٥ كيلو ، فارسل منها الفان الى حلب ، والالفان الباقيان نفدا في سوق الدير ذاتها بين ايدي المنجدين.

يصدرون من الدير الغنم والصوف والسمن والحب والجلود والمصارين المملحة ، وباكورة بعض الخضراوات ، والكمأة ، ويستوردون الاقمشة المنسوجة ، من حريرية وقطنية ، والدخان على اختلاف انواعه والتنبك ، والكحول والمشروبات ، والبترول والبنزين ، والاثمار والحضر ، والبن ، والسكر ، والقمردين ، والزيوت النباتية والمعدنية ، والبلور ، ومختلف المعادن ، وخشب البناء ، والفحم . وهذه المواد تأتي الدير بواسطة كبار تجار حلب ودمشق . ولما كان الهبوط قد حلّ في السوق طول سنة ١٩٣٠ لم تنل الاعمال نجاحها المرغوب .

ولا صناعة في الدير سوى صنع البسط والعباء التي يلبسها البدو . ومما يحول دون نجاح الزراعة عدم استعمال الآلات الزراعية الحديثة ، وليس هناك من املاك واسعة وارياف تصلح للزراعة على مسافات شاسعة ، وخطر الجراد لا يزال دوماً متهدّدًا النبات ، وزد على ذلك عادة الربى السائدة بين الفلاحين وعواقبها الوخيمة . واليك اسعار السوق كما كانت في ربيع السنة ١٩٣٠ ، والليرة العثمانية الذهبية ، تساوي ٥٥٠ غرشاً سورياً .

الخبز	الاقة منه (٤٠٠ درهم)	١٠	غرش سوري
اللحم المشفى	»	٤٥	»
الخضراوات	»	٢	»
الجزر	»	١	»
التمر	الاربع خمّات	١	»
البيض	المئة منه	١٠٠—١٢٥	»
الحليب	الاقة منه	٤—٥	»
السمن	» »	٧٠—٨٠	»
القمر دين	» »	٢٠	»
التين	» »	٤	»
الملح	» »	٥	»
الكمأة	» »	١٥—٣٠	»
الرز	» »	٢٠	»
الجبن	» »	٢٠٠—٢٥٠	»
اللبن	» »	٥	»
الدجاجة	الواحدة	٤٠—٥٠	»
اجرة العامل اليومية		٤٠—٥٠	»

السكان

اذا قابلت بين حالة دير الزور كما وصفناها على ما هي اليوم (راجع سابقاً ص ٥١٤) وبين ما كانت عليه ايام زارها موسيل قبيل الحرب (ص ٦٦٩) ، رأيت البون الشاسع الذي قطعته من مرحلة ، الى مرحلة ، فكان ذلك الفرق عنواناً لخير الآمال في حسن مستقبلها ، ما دام الاهلون خالدين الى السكينة في ربوعها ، وهم مشتغلون بالسلم الافرنسي .

رُوي عن احد القواد الافرنسيين انه لما سُئل عن كيفية استرجاع بلادنا الى حالة عمرانها السالف وسمع اناساً يقولون بواجب غرس الاشجار في فيافيها قاطعهم وقال : « قبل غرس الاشجار في الارض اغرسوا فيها رجالاً يعمرونها . »

ان آفة بلادنا القاتلة هي قلة عدد سكانها . وقد تعكس الآية ، ويصح القول ان كثرة السكان انما هي عنوان حركة الحياة وكثرة موارد الارتزاق . وان من اجلى مظاهر رقي دير الزور نموّ عدد سكانها السريع ، فانهم بلغوا الخمسة والعشرين الفاً ، على ما تروبه الاخبار الرسمية ، ولم يكونوا ليتجاوزوا الخمسة آلاف في اوائل هذا القرن .

لا ادري هل تمكنت الحكومة من اجراء الاحصائية بكمالها ، ولكن لا نخالها تغالي في تقدير عدد السكان كما قلناه لما نعرفه عن المنشآت الجديدة وعن مرافق الرزق المستحدثة الجديرة بان تجذب الاعراب الى دير الزور ، وتوطنهم فيها وقد نوهنا بها سابقاً . واذا تحققت الامال في مد انابيب البترول ، والخط الحديدي بين الفرات وطرابلس عن طريق الدير او في جوارها ، فلا شك ان ربع القرن لا ينقضي قبل ان تبرز عروس الصحراء مزينة باحلى ما يشتهي اليها افئدة روّاد الارتزاق ، فيفضلها الكثيرون من ابناء الوطن على بلاد المهجر ومخاطرها ومصاعبها وما فيها من التعصب عليهم .

المسلمون

هم السواد الاعظم من السكان وهم سنيون واكثريتهم الساحقة من «الشوايا» او الاعراب المتحضرة . وسخت قدمهم في البلدة فاستطابوا ماءها ، وتمتعوا بظل

سلمها ، وانصرفوا يتعاطون اشغال الزراعة والصناعة البسيطة ، تارة لحسابهم الشخصي ، وطورًا مسخرين لتجار حلب وحمص ودمشق ولاهل البادية . وان معيشتهم في بيوتهم لا تزال مطبقة بصبغة البادية ، في سكناهم ، واكلهم ولباسهم ، الا انهم يستعملون في ذلك ما تيسره لهم حياة المدن من الحاجيات او الكماليات فيبنون البيوت بالآجر ويسقفونها بالاخشاب ، ويأكلون الطبيخ ، ويلبسون اللباس الناعم . ولنسائهم زيّ لطيف اذا ما خرجن وعلى رؤوسهن الباءة المطرفة بالقصب والفضة ، المصفحة خدودهن على الجانبين بصفائح لماعة يزيدها « البرقع » غرابة .

ولغة اهل الدير عربية قحة ، تكثر فيها الالفاظ الخاصة بالقبائل ، وبعضها من صميم القاموس فيقولون :

زين	بمعنى جيد	شين	بمعنى بشع
هلحز	» الآن	القاع	» الارض
اللجن	» الطنجرة	القدورية	» الطنجرة
الماعون	» »	الخاشوقة	» الملعقة
المُلاية	» المجلى	الصفري	» الحريف
الثرود	» اللحم	الحبابة	» الجدة
عنينا	» قطعنا الماء	الخاتر	» اللبن
غادي	» هناك	لا تنفت	» لا تنفهر
الدبشي	» الجبس او البطيخ		

ويلفظون الكاف : تش ، والقاف : جيماً مصرية .

المسيحيون

ينوّه اسم البلدة باقامة الرهبان فيها ، كما ذكرنا سابقاً ، وهذا الزعم يؤيده التقليد الموروث بين السكان . على ان اثر المسيحيين الاقدمين المتحى منها او كاد ، على عهد العرب . وابعد ما يرقى بنا التاريخ في ذكر اخبارهم لا يتجاوز السبعين سنة . ارسل الينا هذه الاخبار حضرة الاب يوسف جنانجي والسيد الياس نوري ، من دير الزور ، فروياها تكملة لمقالنا ، ولهما منا الشكر .

قد يمثل المسيحيون في البدير ، حالًا ، على التقريب ، سائر الطوائف

المسيحية المتحدة برومة او المنفصلة ، ولكن لا كيان رسمي الا للسريان الكاثوليك ، واليعاقبة ، والكلدان ، والارمن الكاثوليك والارمن المنفصلين ، واللاتين ، والبروتستانت . واليك مفصل احوالهم.[1]

السريان الكاثوليك

اول كنيسة شيدت في دير الزور كانت كنيستهم ، في نحو السنة ١٨٦٥. وهذه لائحة لكهنتها منذ ذلك العهد الى يومنا : الخوري اسطفان تبوني — القس اغناطيوس نوري (مطران بيروت الحالي) — القس ايليا نعيد — الخوري يعقوب ملكي — القس اوجين دلال — القس حنا بنابيلي — المتسنيور الياس سالم الحاجب البابوي السري ، المقيم في الدير الى يومنا منذ ١٩٠٨ .

ويعد السريان الكاثوليك حالاً زهاء ثلاثين عائلة ، ولهم مدرسة للاحداث.

السريان اليعاقبة

شادوا كنيسة في السنة ١٩٢٤ ، وهم زهاء ٥٧ عائلة ، وخوريهم الحالي اسمه الراهب الياس آدم.

الكلدان

بنوا كنيستهم سنة ١٩٠٤ ، وهم زهاء ٣٠ عائلة وكان رئيساً عليهم السيد المطران اسحق خودباش.

الارمن الكاثوليك

بنى كنيستهم سنة ١٨٨٥ الاب فرنسيس دكدنيان تلميذ المدرسة الاكليريكية اليسوعية في بيروت. خلفه في رعاية الطائفة القس فارطان اسجيان — القس اكوب فرجيان — القس اسطفان مولوزو — القس بدرس توزي باشي الذي قتله الاتراك سنة ١٩١٦ لسعيه في تخفيف شقاء المهاجرين الارمن.

وفي تشرين الثاني من السنة ١٩٢٣ قدم من حلب الى دير الزور الاب النشيط الغيور يوسف جنانجي ، فوجد الكنيسة خراباً ، فضمّ اليه كرام الرعية وغيرهم من ذوي الاحسان ، وتضافروا على تجديد بناء الكنيسة وفتح مدرسة للاناث وللارمن الكاثوليك في دير الزور حالاً زهاء ٥٣ عائلة. ولهم اخويتان احداهما للنساء باسم الحبل بلا دنس ، والاخرى للشبان باسم قلب يسوع الاقدس.

١) هذه اللائحة ترق الى ربيع سنة ١٩٣٠

الارمن المفصلون

... فتحوا لهم كنيسة في احد البيوت ، سنة ١٩٢٤ . وخوريهم اسمه الاب غريغوريوس سركيسيان ، ولهم في البلدة زهاء ١١٥ عائلة .

اللاتين

وفي السنة ١٩٣٠ ، قدم الى دير الزور حضرة الاب جوستينيان الكبوشي يصحبه اخوان مساعدان ، وباشروا بناء دير ، ووضعوا تصميماً لبناية كنيسة ومدرسة ودير للراهبات الفرنسيسكانيات لونس لسونية الافرنسيات . وللاتين زهاء ٢٥ عائلة ، اكثرها عائلات العسكر الافرنسية . ولهم نادٍ كاثوليكي للجيش ، وجمعية الشبيبة الكاثوليكية الافرنسية .

البروتستان

باشروا اعمال ارساليتهم ببناية مستشفى ، وهم ثلاث عائلات ، ولهم قيس اميريكي وطبيب .

كان عدد العائلات المسيحية قبل الحرب على الاجمال لا ينيف على الخمسين ، فاصبح اليوم يقارب ٣١٣ كما رأيت ، فيكون عدد المسيحيين مقارباً الالف والمئتين من غير احصاء العسكر الافرنسي .

وشهدت دير الزور ايام الحرب العظمى ، مذابح الارمن الهائلة ، وتشتيتهم في رمالها ، واغراقهم في فراتها . ووصف المشرق (٢٠ [١٩٢٢] : ٥٦٢) لشاهد عياني ، حوادث الدير في تلك الايام المشؤومة . ومن جملة من ذهب فيها ضحية الاتراك وقساوتهم الوحشية الاب بطرس اغاجانيان اليسوعي في ٦ ايلول ١٩١٦ .

ومضت الايام ولا يزال ذكر من قُتلوا ملبداً جوّ المسيحيين الديريين بغيوم الاسف والحسرات . على ان ما نعرفه عن ميتة اخواننا الصالحة وعن صبرهم على الالم والمشقات حباً بالمسيح ، ليبرد حرارة اللوعة عليهم ويداوي جراحات القلوب ببرهم التعزية والسلوان . فنسأل الله ان يقبل دماءهم الزكية ضحية تكفير وطلب ، وينفر بشفاعتهم ذنب من جحدوا ايمانهم لكي يسلموا من السيف ، ويردّ الى الايمان المقدس القنام الشاردة اعني بها الاولاد والنساء الذين اعتقلهم العرب واضطروهم الى اعتناق الاسلام اضطراراً ، وينوّر قلوب الغير المؤمنين ويفيض غزارة بركاته على سكان البلاد اجمعين .